تراث الإنسانية

NYROUF

الامتاع والمؤانسة

لأبى حيان التوحيدى

د. زكى نجيب محمود

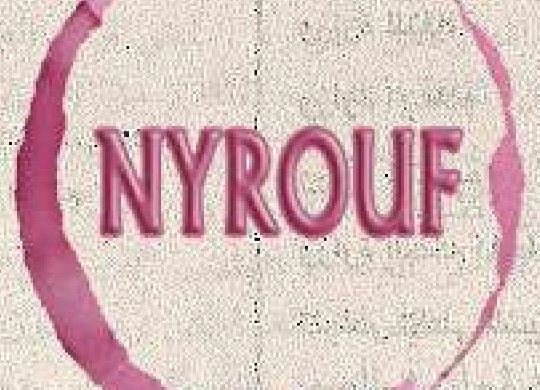


الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥

الإمتاع والمؤانسة

لأبي حيان التوحيدي





د . زكي نجيب محمود



مهرجان القراءة للجميع ٩٥
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(التراث الإنساني)

الجهات المشاركة :
جمعية الرعاية المتكاملة
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

الإنجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الإمتاع والمؤانسة
لأبى حيان التوحيدى
د . زكى نجيب محمود

كان أبو حيان التوحيدى بائسا فى حياته وبعد مماته ، أما فى حياته فقد عاش فقيرا ، وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع آفاقه وعمق أغواره ، حتى ليعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . فاسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها الجزء الثالث من كتاب الامتاع والمؤانسة ، موجها اياها الى صديقه أبى الوفاء المهندس الذى كان له فضل تقريبه من الوزير ابى عبد الله العارض وهو الوزير الذى قيلت فى حضرته أحاديث السمر الثقافى التى جمعت فى كتاب الامتاع والمؤانسة ـ اسمع هذه الرسالة الحزينة التى يختم بها أبو حيان كتابه هذا ، فهو يقول : « خلصنى

أيها الرجل من التكلف ، انقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ، اشترني بالاحسان ، اعتبدني بالشكر .. اكفني مؤونة الغداء والعشاء ، الى متى الكسيرة اليابسة والبقيلة الذاوية ، والقميص المرقع .. ؟ الى متى التأدم بالخبز والزيتون ؟ .... اجبرني فانني مكسور ، اسقني فانني صد ، اغثني فانني ملهوف ، شهرني فانني غفل ، حلني فانني عاطل ؛ قد اذلني السفر من بلد الى بلد ، وخذلني الوقوف على باب باب ، ونكرني العارف بي ، وتباعد عني القريب مني .... » .

ولعل أبا الوفاء المهندس قد استجاب الى استغاثة أبي حيان فاغاثه ، بأن قدمه الى الوزير أبي عبد الله العارضي ، فجعله الوزير من سماره ، وسامره أبو حيان ثماني وثلاثين (١) ؛ وبعدئذ طلب أبو الوفاء من أبي حيان

(١) في نشرة الكتاب التي أصدرها المرحومان الاستاذان احمد امين واحمد الزين ، [illegible] أربعون ليلة ، وفي المقدمة التي كتبها الاستاذ احمد امين ورد ان الليالي عددها سبع وثلاثون ، لكنني عددتها فوجدتها ثماني وثلاثين ، ذلك ان الليلتين العاشرة والحادية عشرة قد ادمجتا في ليلة واحدة ، ثم جاء العدد الترتيبي بعد [illegible] الليلة الثالثة عشرة ، ولم تذكر الليلة الثانية عشرة ، وقد [illegible] في النشرة السالفة الذكر « أربعين ليلة » ، فاذا طرحنا الليلة الحادية عشرة المدمجة في العاشرة ، والليلة الثانية عشرة المتروكة ، كان العدد ثماني وثلاثين - هذا من حيث عدد الليالي بحسب تقسيم الكتاب ، اما من حيث عددها من حيث المسامرة ، فقد كانت [illegible] على حسابي ست وثلاثين [illegible]

أن يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو حيان ، فكان من ذلك هذا الكتاب الذي نقدمه .

وقد حقق الأستاذ احمد امين في مقدمته لهذا الكتاب شخصية هذا الوزير وانتهى الى انه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، وزير صمصام الدولة البويهي ، وقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وظل ابن سعدان في الوزارة الى سنة ٣٧٥ ؛ وقد كان له ابان وزارته عشرة يجمع فيها العلماء والأدباء ، منهم ابن زرعة الفيلسوف النصراني ، ومسكويه ، وأبو الوفاء المهندس (الذي قرب أبا حيان من مجلس الوزير) .

وأما أبو الوفاء المهندس ، الذي من اجله كتب كتاب الإمتاع والمؤانسة ، فقد قال عنه ابن خلكان ، انه احد الائمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفي سنة ٣٧٦ ، وعلى هذا التاريخ يعلق الأستاذ احمد امين بقوله ان ابن خلكان قد ذكر انه نقل تاريخ الوفاة هذا عن شيخه ابن الأثير ، ولكن الذي في ابن الأثير انه عد وفاته في حوادث سنة ٣٨٧ فاما أن ابن خلكان اخطأ في النقل أو أن الناسخ اخطأ في الكتابة .

واذا قلنا ان أبا حيان قد ألف نحو عشرين كتابا (١)

لكن لم يبق منها الا عدد قليل ، منها كتاب « الهوامل والشوامل » (نشرة الأستاذان احمد امين والسيد احمد صقر) و « الصداقة والصديق » و « البصائر والذخائر » (نشره الأستاذان احمد امين والسيد احمد صقر) و « المقابسات » و « الاشارات الالهية » (نشرة الدكتور عبد الرحمن بدوى) — وكتاب « الامتاع والمؤانسة » الذى نقدمه بهذا المقال . وقد الفه لابن سعدان — كما قلنا — سنة ٣٧٤ ؛ والظاهر ان اسبقها تاليفا هو الهوامل والشوامل (راجع مقدمة احمد امين للهوامل والشوامل — ص ى) وتبعه الامتاع والمؤانسة ، ثم الصداقة والصديق . واما الذخائر والبصائر فقد ذكر فى مقدمته انه بدأ به سنة ٣٧٥ وانه بعد خمسة عشر عاما ، ثم جاء كتاب المقابسات ، لأنه ذكر الهوامل والشوامل فى المقابسات . وقد الف الصداقة والصديق للوزير ابن سعدان ابان وزارته — ووزارته من ٣٧٣ الى ٣٧٥ .

يدور السمر فى كتاب الامتاع والمؤانسة على ليال ، لكل ليلة موضوع رئيس يحدده الوزير بسؤال يلقيه لكن سرعان ما يستطرد ويتشعب فيتناول امورا كثيرة متنوعة ، وغالبا ما يختتم « بملحة وداع » — وفيما يلى موجز سريع لأهم ما دار من احاديث خلال الليالى الثمانى والثلاثين .

— ففى الليلة الاولى جرى السمر حول متعة الحديث ، وخصائص الحديث الجيد ، وخلاصة الرأى هنا ان الحديث

الجيد هو الذى يجرى على احكام العقل ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ؛ وان الانسان ليسأم من كل شيء الا من الحديث العقلى ؛ ففى المسامرة تلقيح للعقول ، وترويح للقلب ، وتسريح للهم ، وتنقيح للأدب ؛ واما الموضوعات العرضية التى تناولها الكلام فى الليلة الأولى ، فتحديدات لغوية تفرق بين معنى كلمة « عتيق » ومعنى كلمة « قديم » وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذى يكون فيه جديد والحديث الذى يذكر القديم : « التعجب كله منوط بالحديث . واما التعظيم والاجلال فهما لكل ما قدم » ؛ وكذلك تناول ابو حيان بالتحديد معانى هذه الكلمات : حادث ، ومحدث ، وحديث ؛ واخيرا ختمت الليلة بملحة الوداع ، وهى نكتة عن بناء بنى جدارا لرجل ، وبينما هما مختلفان على الأجر ، سقط الجدار ، فقال الرجل للبناء : هذا عملك الحسن ؟ فقال البناء وهل اردت ان يبقى الجدار قائما الف سنة ؟ فاجاب الرجل : لا ، ولكن كان يبقى الى ان تستوفى اجرتك .

— ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة حينئذ فى العلم والأدب ، يسمّهم ابو حيان للوزير ويقول رأيه فيهم ، فمنهم ابو سليمان المنطقى الذى يقول عنه : « اما شيخنا ابو سليمان فانه أدقهم نظرا ، واقعرهم غوصا ، واصفاهم فكرا ، واظفرهم بالدرر ، واوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن

لاستنباط الغريض ، وجرأة على تفسير الرموز ، وبخـل بما عنده من هذا الكنز » .

ومنهم ابن زرعه ، فهو « حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجـوع الى الكتب ، محمود النقـل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة » ومنهم ابن الخمار ، وابن السمح ، والقومسي ، ومسكويه الذي يصفه بقوله : « فقير بين أغنيـاء ، وعيي بين أبيناء ، لأنه شاد .. » ومنهم عيسى بن علي ، ونظيف ، ويحيى ابن عدي ، ويقول عنه : « انه مشوه الترجمـة رديء العبـارة ، ولكنه كان مثانيا في تخريج المختلفة .. » ــ أي في تخريج المسائل المختلفة .

فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آراء هؤلاء العلمـاء في « النفس » فأخذ أبو حيان يفصـل القول في ذلك ؛ وملخص ما قاله انهم متفقون على أن النفس جوهر خالد ؛ وكان من أدق ما قاله كذلك في العلم بمسائل الحكمة انه وسط بين اليقين الكامل وبين اليأس من المعرفة ؛ وكذلك قال في علم الطب انه وسط بين الصواب والخطأ ، وفي الحياة أنها وسط بين السلامة والعطب ، وكذلك فرق أبو حيان بين العلم والتعليم ، « فالعلم صورة المعلوم في نفس العـالم ، وأنفس العلماء عالمة بالفعل ، وأنفس المتعلمين عالمة بالقوة ، والتعليم هو ابراز ما بالقوة الى الفعل ، والتعليم هو بروز ما هو بالقوة الى الفعل » ــ وختمت الليلة بأربعة أبيات في الترك .

ــ وفي الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجـال الدولة ، فبهرام « رجل مجوسي معجب لئيم ، لا يعرف الوفاء ولا يرجع الى حفـاظ ، وابن كثيا « رجل نصراني أزعر خسيس ، ما جاء يوما بخير قط لا في رأي ولا في عمل ولا في توسط » هكذا .

ــ وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد ، يسأل الوزير أبا حيان رأيه في ابن عباد وما يقال في ذمه أحيانا ، فيقول أبو حيان « ان الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب فصيح اللسـان .. » ويمضي في تحليل شخصيته تحليلا مسهبا ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب للثناء لدرجة الاسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ؛ ويأخذ أبو حيان في مقارنته بابن العميد ؛ ويصف ابن عباد بمرض النفس « فللنفس أمراض كأمراض البدن » ؛ وهكذا أعطانا أبو حيان صورة مفصلة عن جوانب ابن عباد : فضائله وعيوبه ، ومما ورد في هذه الليلة كذلك ذكر لأعلام العلماء والأدباء وما يمتاز فيه كل منهم ؛ فالخليل في العروض ، وأبو عمرو بن العلاء في اللغة ، وأبو يوسف في القضاء ، والاسكافي في الموازنة ، وابن نوبخت في الآراء والديانات ، وابن مجـاهد في القراءات ، وابن جرير في التفسير ، وارسطو طاليس في المنطق ، والكندي في الجوهر الفرد (الجزء الذي لا يتجزأ) ،

وابن سيرين في العبارة ، وابن العيناء في البديهة ، وابن أبي خالد في الخط ، والجاحظ في الحيوان .. الخ .

ومن أصدق ما جاء في حديث هذه الليلة ، قول أبي حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبيـــة مـع التواضع في تقديره لنفسه . قال : « ليس شيء أنفع للمنشيء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره ، وان كان دونه في الدرجة ، وليس في الدنيا محسوب (أي ليس فيها أحد) الا وهو محتاج الى تثقيف ، والمستعين أحزم من المستبد .. » ومن لطيف ما قاله في التفرقة بين كتاب يكتب وحديث يقال . أن الكاتب لا يشفع لـه خطـــاه أن يكون قد أسرع في الكتابة ، فليس يعلم القارىء أسرعت في كتابة ما كتبت أم أبطأت ، وانما ينظر أصبت فيه أم أخطأت وأحسنت أم أسأت » .

ـ وفي الليلة الخامسة عود الى الحديث عن ابن عباد ، ثم الحديث عن أبي اسحق الصابي : أما ابن عباد فقد نبيح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له أخطأت ، فمن كان موجودا يجعل الناس خطاء صوابا ، وأما أبو اسحق الصابي « فانه أحب الناس للطريقة المستقيمة .. وانمـا ينقم عليه قلة تصيبه من النحو » .

ـ وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم : فالفرس تقتدى ولا تبتكر ، والروم لا يحسنون الا البناء والهندسة ، والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا روية ، والترك سباع للهراش ، والهند أصحاب وهم وشعبذة ،

وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير ، وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة ، وهم ذوو قيم خلقية عليا .

ومن رأى أبي حيان أن الفضائل موزعة بين الأمم ، واذا وصفت أمة بفضيلة أو برذيلة فلا يكون ذلك الا على سبيل التعميم في القول . ولذلك اذا أردت مقارنة بين أمة وأمة وجب أن يفاضل بين الكامل في كل منهما أو بين الناقص في كل منها . وان تعصب الانسان لقومه ليجعل من العسير عليه أن يقول أي الأمم أفضل من سواه ، فلكل أمة عصر تعلو فيه ثم يجيء عصر آخر فتعلو أمة أخرى ، وهكذا ، وليس من الانصاف أن تقارن أمة ابان صعودها بأخرى ابان هبوطها .

على أن أبا حيان يعود فيخص العرب بالثنـاء ، ويتنـاول بحديثه اللغـة العربية فيقول انه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد في أي منها « نصوع العربية ، أعني الفرج التي في كلماتها ، والفضاء الذي تجده بين حروفها ، والمسافة التي بين مخارجها .. الخ » ، ويتصدى أبو حيـان لما قاله الجيهاني في ذم العرب ، فيتولى الدفاع عنهم أمجد دفاع وأبلغه .

ـ وفي الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة أيهما أنفع ـ أو قل بين العلوم الرياضية وفنون الأدب ـ فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية لأن الأولى جد والثانية هزل ، والأولى مستندة الى مبدأ

موصولة بغاية وحاضرة الجدوى ، أما الثانية فزخرفة وحيلة ، والأولى شبيهة بالماء والثانية شبيهة بالسراب ولئن اكتفت الدولة بكاتب واحد ، فلا يكفيها مائة محاسب .

ويرد أبو حيان بقوله لا غنى للحساب نفسه عن الانشاء ، وأن البلاغة مستندة الى عقل ، لأن بها تقام الحجة ؛ فهي تبدأ بأفكار عقلية ثم تمر خلال ألفاظ ، وأخيرا تستقر في خط ؛ وأما أن الدولة يكفيها منشيء واحد فليس حجة على شيء ، لأننا نحتاج الى خياطين أكثر مما نحتاج الى أطباء ، ولا يدل ذلك على أن صناعة الطب دون صناعة الخياطة ، وليس صحيحا أن الكلام الملحون يؤدي المعنى لأن المعنى يتغير دائما بتغير الاعراب .

– أما الليلة الثامنة فقد رويت فيها مناقشة فلسفية عميقة كانت قد جرت بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس القنائي في حضرة الوزير ابن الفرات عن المنطق اليوناني والنحو العربي (وهي مناقشة وردت أيضا في كتاب المقابسات لأبي حيان التوحيدي) وخلاصة الرواية أن الوزير ابن الفرات كان قد سأل مجالسيه ذات يوم ان كان بينهم من يستطيع أن يتصدى لمناظرة أبي بشر متى في المنطق ، فانه يقول أن « لا سبيل الى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشر والحجة من الشبهة والشك من اليقين الا بالمنطق » ؛ فاستجاب أبو سعيد السيرافي لدعوة الوزير ثم واجه متى فقال :

حدثني عن المنطق ما تعني به ؟ فقال متى : أعني به أنه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان ، فاني أعرف به الرجحان من النقصان ، فقال أبو سعيد ردا على ذلك أن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالاعراب المعروف اذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل اذا كنا نبحث بالعقل ، وكأنما أبو سعيد يريد بذلك أن يقول أن صورية المنطق وحدها لا تغني ، اذا لابد من معرفة بحقائق المواد المرتبطة بعضها ببعض بتلك الصور ، والتشبيه بالميزان ناقص ، لأن من الأشياء ما لا يوزن ، واذا كان المنطق الأرسطي ملزما لمن يتكلم اللغة اليونانية فليس هو بملزم لمن يتكلم العربية .

فيرد متى قائلا ان المنطق يعنى بالمعقولات ، والناس في المعقولات سواء ، فأربعة وأربعة تساوي ثمانية عند اليونان وعند العرب وعند غيرهما من الأمم على السواء ، فيعود أبو سعيد الى الكلام قائلا : ان التشبيه بأربعة وأربعة وأنها تساوي ثمانية عند كل الأمم هو تشبيه لا يؤدي ، لأن حقائق الرياضة بينة ، على خلاف المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ، على أننا اذا كنا نعنى بالمعقولات تلك المعاني التي يوصل اليها باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، فقد لزمت الحاجة الى معرفة اللغة ، فكيف ندرس منطق اليونان دون لغتهم ، فضلا عن أننا ننقل المنطق اليوناني عن اللغة السريانية ، والمعاني التي

يصيبها التحول عند الترجمة من لغة الى لغة ؟ وهنا يقول أبو بشر متى ان الترجمة عن اليونانية تكفينا في هذا الصدد . ويعود أبو سعيد الى الرد قائلا : افرض ان الترجمة تكفينا في ذلك . فهل اختص اليونان دون سواهم بالعقل ؟ أليس العلم مقسما بين الأمم ؟ أليس اليونان كغيرهم من الناس يصيبون ويخطئون . ومع ذلك فليس واضع المنطق امة بأسرها ، بل هو رجل واحد . هذا الى ان منطقه لم يغير من العالم شيئا ، لأن الأمر مرهون بالفطرة . وحال الناس من حيث الفطرة هي بعد ظهور المنطق كما كانت قبل ظهوره . اننا نعلم ان عقول الناس متفاوتة فكيف تزعم ان في وسع المنطق ان يسوى بينها جميعها ؟

ويسأل أبو سعيد مناظره فيقول : هل في وسع المنطق الأرسطي ان يدلنا على معاني حرف الواو في اللغة العربية ؟ فقال له متى : هذا نحو وليس هو من شأن المنطق . فأجابه أبو سعيد بأن المنطق هو نحو والنحو هو منطق . فاذا كانت المعاني مشاعا بين الأمم ، فلا تكون يونانية ولا هندية . وانما يكون الاختلاف في اللغة التي يعبر بها كل قوم عن تلك المعاني . اذن لدراسة اللغة لا مندوحة عنها . ويضرب أبو سعيد مثلا بالحروف في اللغة العربية : الواو والباء وحرف « في » فلكل منها احكام تقضي بها قواعد اللغة العربية . وليست هي

نتاجا للعقل اليوناني . مما يبين انه لا بد للمنطقي من دراسة اللغة التي بها يكون التفكير . فالنحو يمس المعاني ولا يقتصر أمره على اللفظ .

انه يخوض مادة الفكرة لا يوصل الى حل لأي مشكلة . فالمنطق في صورته المجردة لا يرفع خلافا بين مناظرين ولا يؤدي بصاحبه الى معتقدات بعينها . وخلاصة القول عند أبي سعيد السيرافي ان دراسة المنطق دون دراسة اللغة العربية لا تجدي نفعا .

وبعد الفراغ من هذه المناقشة الفلسفية ينتقل الحديث في تلك الليلة الثامنة الى وصف لشخصية أبي سعيد السيرافي والى آخرين غيره كأبي علي النحوي ، وعلي بن عيسى وطائفة من الشعراء ، ثم يتناول الحديث مسكويه ، وابن نباتة وغيرهما ، فكانما هي سجل حافل لحركة علمية ثقافية واسعة المدى .

وفي الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان وما تتميز به ، وكيف ان صفات الحيوان موجودة مثلها في الانسان ، اذ في الانسان وحده تتجمع صفات الحيوانات كلها . فهو لئن يختلف عنها لا بالنوع ولكن بكثرة ما فيه من صفات ، تجمعت فيه وتفرقت في الحيوان ، فللسبع والفأرة صفة الكمون ، وللذئب صفة الثبات ، وللخنزير صفة الحذر ، وهكذا . وانظر مثلا الى الصفات

التي لا بد من توافرها في القائد تجدها كلها مما يتصف به الحيوان أيضا : « ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان : سخاء الديك ، وتحنن الدجاجة ، ونجدة الأسد ، وحملة الخنزير ، وروغان الثعلب ، وصبر الكلب ، وحراسة الكركي ، وحذر الغراب ، وغارة الذئب ، وسمن « بعرو » – وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء » .

نعم إن من أهم ما يفرق بين الحيوان والانسان أن الأول يعمل مدفوعا بالهلم على حين أن الثاني يعمل بعد اختيار إرادي منه ، لكن للانسان من الهسام الحيوان نصيبا ، كما أن للحيوان من اختيار الانسان نصيبا .

وذكر أبو حيان أن للانسان انفســا ثلاثا : النفس الناطقة ، والنفس الغضبية ، والنفس الشهوانية ، وأن لكل نفس منها أخلاقها ، فمن خصـــال النفس الناطقة أن تبحث عن حقيقة الانسان والكون والله ، وكذلــك من وظائفها أن تضبط نوازع النفســين الأخريين ، وبعد ذلك أخذ أبو حيان يتناول الفضـــائل وأضدادها واحدة واحــدة ليحـــدد مقوماتهـــا وعناصرها ، فما الحسن وما القبيح ؟ ما الصواب وما الخطأ ؟ ما الخير وما الشر ؟ ما العدل وما الجور ؟ ما الشجاعة وما الجبن .. الخ .

ويختم أبو حيان القول في الأخـــلاق بأن يصنف الناس من حيث أخلاقهم بحسب أمـــزجتهم . فاذا غلبت الحرارة على الانسان كان شجاعا بذالا ملتهبـــا سريع الحركة والغضب قليـــل الحقـــد زكي الخـــاطر حســـن الادراك .

واذا غلبت عليه البرودة كان بليدا غليظ الطبـاع ثقيل الروح .

واذا غلبت عليه الرطوبة كان لين الجـــانب سمح النفس سهل الخلق كثير النسيان .

واذا غلبت عليه اليبوســة كان صـــابرا ثابت الرأي صعب الخلق .

ومما هو جدير بالذكر عن هذه الليلة أن أبا حيـــان يذكر فيها أنه قد أضاف من عنده عند الكتابة ما لم يرد في غضون الحديث ، وذلك استكمالا للموضوع .

– وفي الليلتين العاشرة والحادية عشرة قرينه بحث عن خصائص الحيوان ، منها ما هو فسيولوجي ومنهـــا ما هو متصل بالطباع .

– وفي الليلة الثالثة عشرة (٢) فوريه يبحث فلسفي من النفس ، فهي تعمل بغير عضو خاص (من أعضاء البدن ، ولذلك فهي لا تفسد بفساد البدن . هي جوهر لا مادي ، وغير قابل للمقاييس الكمية . ينتقل الحديث الى الحركة ، فهي اما من داخل ؛ وعندئذ تكون اما حركة داخلية متواصلة واما حركة داخلية تسكن أحيانا . أو من خارج . وعندئذ تكون اما حركة بالدفع من خلف او بالجر من امام . وحركة الجسم الانساني انما تكون بفعل نفس . واذن فالنفس حية . وهي جوهر قابل لأن تطرأ عليه الأضداد دون أن يتغير هو في جوهريته . وقوام النفس بذاتها لا بكونها حالة في بدن . ومن الفوارق بين الجسم والنفس ان الجسم لا يقبل صورة الا اذا زالت عنه الصورة التي كانت حالة فيه ، لأن الضدين لا يجتمعان فيه . أما النفس فتقبل الصور الأضداد دفعة واحدة .

– أما الليلة الرابعة عشرة فتبدأ بمعنى السكينة وأنواعها . فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية وثالثة عقلية ورابعة الهية . أما الطبيعية فهي اعتدال المزاج في

(٢) قد رتبت خطأ في نشرة الاستاذين احمد أمين واحمد الزين بحيث جعلت الليلة الثالثة عشرة ، ثم تتابع الخطأ في العدد الترتيبي بعد ذلك الى نهاية الكتاب بأجزائه الثلاثة – وحقيقتها انها الليلة الثانية عشرة ، لكننا نؤثر الابقاء هنا على الترتيب الموجود في الكتاب لسهولة المراجعة .

العناصر الطبيعية ، وأما النفسية فهي ما نسميه بالروية حين تأتي مماثلة لحكم البديهة ، والسكينة العقلية هي في التئام الخواطر والأفكار ، وأما السكينة الالهية ، فلا عبارة عنها على التحديد ، لأنها كالحلم في الانتباه ، وكالاشارة في الحلم ، وليست حلما ولا انتباها في الحقيقة ، أي انها سكينة روحانية .

وبعد ذلك ينتقل الحديث الى ما تشترك فيه الأمم وما تختلف فيه من صفات وخصائص ، فكلها مشتركة في الفطرة الواحدة ، وتأتي بعد ذلك أوجه الاختلاف . فاليونان يميزهم الفكر ، والهند يميزهم الوهم (أي الخيال) والعرب ميزتهم الفصاحة ، والفرس السياسة ، والترك الشجاعة .

– وفي الليلة الخامسة عشرة حديث فلسفي عن « الممكن » و « الواجب » حكى فيه التوحيدي عن ابن يعيش الرقي رأيه فيهما ، فقال : « الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقل به ، ولا طبيعة يتحيز فيها .. وكما أن الرؤيا ظل من ظلال اليقظة ، والظل ينقص ويزيد اذا قيس الى الشخص ، كذلك الممكن ظل من ظلال الواجب ، فطورا يزيد تشابها الواجب ، وطورا ينقص تشابها الممتنع ، وطورا يتساوى بالوسط » والواجب (ويقصد به في المصطلح الفلسفي ما هو ضروري الوجود) لا عرض له لأنه حد واحد ، وله نصيب من الوحدة بدليل انه لا تغير

له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالغايبة ولا بالوهم ولا بالعقل » ... الخ . ثم ينتقل الحديث بعد ذلك الى نقطة فلسفية أخرى ، هي الفرقة بين العقل والحس ، فالأول ثابت والثاني متغير . ومما قاله في ذلك أن العقل يوصف بشهادة الحس ، وكذلك الحس يوصف بشهادة العقل ، « الا أن شهادة الحس للعقل شهادة العبد للمولى ، وشهادة العقل للحس شهادة المولى للعبد » و « العقل يحكم في الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصور الرفيعة » بالقياس الى الحواس التي تتعلق بالفاسدات البائدات المتغيرات . وبعد ذلك انتقل الحديث الى مسائل لغوية .

— وفي الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر ، تعليقا على كتاب العامري المعنون « انقاذ البشر من الجبر والقدر » .

وبهذه الليلة انتهى الجزء الأول من كتاب الامتاع والمؤانسة .

— ويبدأ الجزء الثاني بالليلة السابعة عشرة ، وفيها بحث لغوي عن الكلمات التي على وزن تفعال (بكسر التاء) وتفعال (بفتح التاء) .

ثم ينتقل الحديث فيها عن اخوان الصفا . ويقال ان هذا هو النص الوحيد الذي كشف لنا عن افراد هذه

الجماعة التي الفت « رسائل اخوان الصفا » المشهورة في تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ثم نقله القفطي ، وعن القفطي نقله كل من كتبوا عن اخوان الصفا . وعن هذه الجماعة الفلسفية يقول التوحيدي هنا : « وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهبا زعموا انهم قربوا به الطريق الى الفوز برضوان الله والمصير الى جنته . وذلك انهم قالوا : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة .. وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة ، علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، وكتموا اسماءهم ... » .

عقب على ذلك التوحيدي بذكر بعض الآراء في تلك الرسائل ، ومنها ما يدحض قولهم في أن الشريعة من الفلسفة ، لأن الشريعة وحي النبي ، نسلم بها ولا نعللها ، وهي لا تخضع للمقاييس ، ولا تشبه العلم الطبيعي ولا علم الهندسة ، ولا تحتاج الى المنطق ، وعند الاختلاف على شيء في العقيدة لا نلجأ الى العلم ، فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأي الزائل . والعقل وحده لا يكفي ولا بد معه من وحي ينزل على نبي ، والنبي فوق الفيلسوف .

ثم يورد أبو حيان رد المقـــدسي على هذا كله ، « فالشريعة طب المرضى والفلسفة طب الأصحـــاء » ـ ثم رد الحريري على المقدسي في مقارنة الشريعة بالفلسفة ، ويورد كذلك رأى أبى سليمان المنطقى القائل بأن الشريعة والفلسفة كلتيهما حق ، دون أن تكون إحداهما مأخوذة من الأخرى ، وقد تجتمع الشريعة والفلسفة فى رجل واحـد وقد تظهر كل منهما على حدة .

وينتقل الحديث بعد ذلك الى استطرادات فى الحكمة وفى خصـائص الحيوان وغير ذلك .

ـ والليلة الثامنة عشرة حديثها مجون وهزل .

ـ والتاسعة عشرة فيها أقـوال حكمية قرئت عـلى الوزير .

ـ والعشرون تشتمل على أحاديث نبوية .

ـ والليلة الحـادية والعشرون تتنـاول موضـوع الغناء والموسيقى ، فلماذا تؤثر الموسيقى فى العقل ؟ وفيها حديث عن حاستى السمع والبصر .

ـ وأما الليلة الثانية والعشرون فقد دار الحـديث فيها حول موضوع فلسفى عويص ، هـو موضوع الجزئى والكلى وإدراكهما والعلاقة بينهما ، ومن أبرع ما قالــه أبو حيان فى ذلك ـ نقلا عن أبى الحسن العـامرى ـ

« الكلى مفتقر الى الجـــزئى ، لا لأن يصـــير بديمومته معقولا ، بل لأن يصير بتوسطه موجـــودا ، والجزئى مفتقر الى الكلى ، لا لأن يصير بتوسـطه موجودا ، بل لأن يصير بديمومته معقولا (أى أن الكلى بحاجـة الى الجزئى ليتجسد فيه وجودا فعليا ، والجزئى بحاجـة الى الكلى ليدوم) » .

ومما قاله فى الكلى والجزئى أيضا أن « ما هو أكثر تركيبا فالحسى أقوى على اثباته ، وما هـو أقل تركيبا فالعقل أخلص الى ذاته » .

وفى هذه الليلة أيضا حديث عن مشكلة الواحــد والكثير ، وهى مشكلة معروفة فى الفلسفة ، وذات علاقة بالكلى والجزئى ، وفيها أيضا حديث عن أنواع الخطاب : خطاب العاقل للعاقل ، وخطاب العاقل للأحمق ، وحديث عن « العادة » ، وحديث عن الفقر ومعناه الصحيح ، فليس الفقر فى قلة المال ، بل هو فى كثرة الشهوات وإن كثر المـــال .

ـ وفى الليلة الثالثة والعشرين روايات عن النبى عليه السلام .

ـ وفى الرابعة والعشرين أحـــاديث عن الحيوان والنبات : أين تكون مواطنها وما طبائعها ؟ ثم حديث عن الروح والنفس .

وأما حديث الليلة الخامسة والعشرين فمختارة بارعة فيها موازنة بين النظم والنثر ، فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث فى موضوع النظم والنثر كلاماً على كلام ، والكلام على الكلام صعب ... لأنه يدور على نفسه ، ويلتبس بعضه ببعضه ، ولهذا شق النحو وما أشبه النحو من المنطق ، وكذلك النثر والشعر » .

ثم رويت آراء تمجد النثر وتفضله على الشعر : فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلة منثورة ، والوحدة أظهر فى النثر منها فى الشعر ، والنثر طبيعى والشعر صناعى ، وترتيب الكلام فى النثر لا يحتاج الى تكلف ، والنثر من قبل العقل ، ونجوم السماء منثورة ، والأحاديث النبوية نثر .

وبعد ذلك رويت آراء فى تفضيل الشعر ، فله صناعة تقتدر على القلة ، أما النثر ففى وسع الجميع ، والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد الا فى الشعر ، والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء .

وتختم المحاورة برأى معتدل ، فلكل من الشعر والنثر فضائله ، ولكل منهما بلاغة .

– وفى الليلة السادسة والعشرين مجموعة من أمثلة .

– وتروى الليلة السابعة والعشرون مجموعة من قصص ونوادر تدل كلها على أثر المصادفات فى مجرى الحياة ، ثم تحكى من الفأل والطيرة .

– وفى الثامنة والعشرين ذكر طائفة من أصحاب الطرب .

وفى التاسعة والعشرين وفى الثلاثين بحوث لغوية .

– وفى الحادية والثلاثين كلام فى الحرب ، وكلام فى العقل والجنون .

وبهذه الليلة ينتهى الجزء الثانى .

– ويبدأ الجزء الثالث بالحديث عن الطعام والطاعمين ، فيدور الحديث فى ذلك خلال ثلاث ليال : بقية الليلة الحادية والثلاثين ، ثم الليلة الثانية والثلاثين ، والثالثة والثلاثين .

– وفى الرابعة والثلاثين حديث عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فلا بد للحاكم العاقل أن يتسع صدره لما يقوله الناس عنه ، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم هى كالعلاقة بين الوالد وولده ... الخ .

– وفى الخامسة والثلاثين حديث فى الجبر والاختيار ، وفى الحب والشهوة ، وفى النفس والروح ،

ـ وتدور الليلة السادسة والثلاثون حول بحوث لغوية .

ـ والسابعة والثلاثون حول بعض الصفات الخلقية وتحديد عناصرها المكونة لها .

ـ وفي الثامنة والثلاثين ، والتاسعة والثلاثين ، والاربعين نوادر واحاديث فيها فطنة وسرعة خاطر .

ويختم الكتاب برسالتين يوجههما أبو حيان التوحيدي الى الوزير ، ثم برجاء يوجهه الى ابي الوفاء المهندس متوسلا مستعطفا .

نصوص مختارة

١ ـ في خصائص العرب :

ان العرب اهل بلد قفر ، ووحشة من الأنس احتاج كل واحد منهم في وحدته الى فكره ونظره وعقله ، وعلموا ان معاشهم من نبات الأرض ، فوسموا كل شيء بسمته ، ونسبوه الى جنسه ، وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه ، واوقاته وأزمنته ، وما يصلح منه في الشاة والبعير ثم نظروا الى الزمان واختلافه ، فجعلوه ربيعيا وصيفيا ، وقيظيا وشتويا ، ثم علموا ان شربهم من السماء ، فوضعوا لذلك الانواء ، وعرفوا تغير الزمان

فجعلوا له منازله من السنة ، واحتاجوا الى الانتشار في الأرض ، فجعلوا نجوم السماء ادلة على اطراف الأرض واقطارها ، فسلكوا بها البلاد وجعلوا بينهم شيئا ينتهون به عن المنكر ، ويرغبهم في الجميل ، ويتجنبون به عن الدناءة ، ويحضهم على المكارم ، حتى ان الرجل منهم وهو في فج من الأرض يصف المكارم فما يبقى من نعتها شيئا ، ويسرف في ذم المساوئ فلا يقصر . ليس لهم كلام الا وهم يحاضون به على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وبذل المال وابتناء المحامد كل واحد منهم يصيب ذلك بعقله ، ويستخرجه بفطنته وفكرته ، فلا يتعلمون ولا يتأدبون ، بل نحائز (أي طبائع) مؤدبة ، وعقول عارفة ، فلذلك قلت لكم : انهم اعقل الأمم ، لصحة الفطرة ، واعتدال البنية ، وصواب الفكر وذكاء الفهم » (ج ١ ـ ص ٧٢) .

٢ ـ صور لبعض رجال الفكر في عصره :

(وردت في حديث الليلة الثانية)

... اما شيخنا ابو سليمان (المنطقي) فانه ادقهم نظرا ، واقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا ، واظفرهم بالدرر ، واوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر في الكتب وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز .

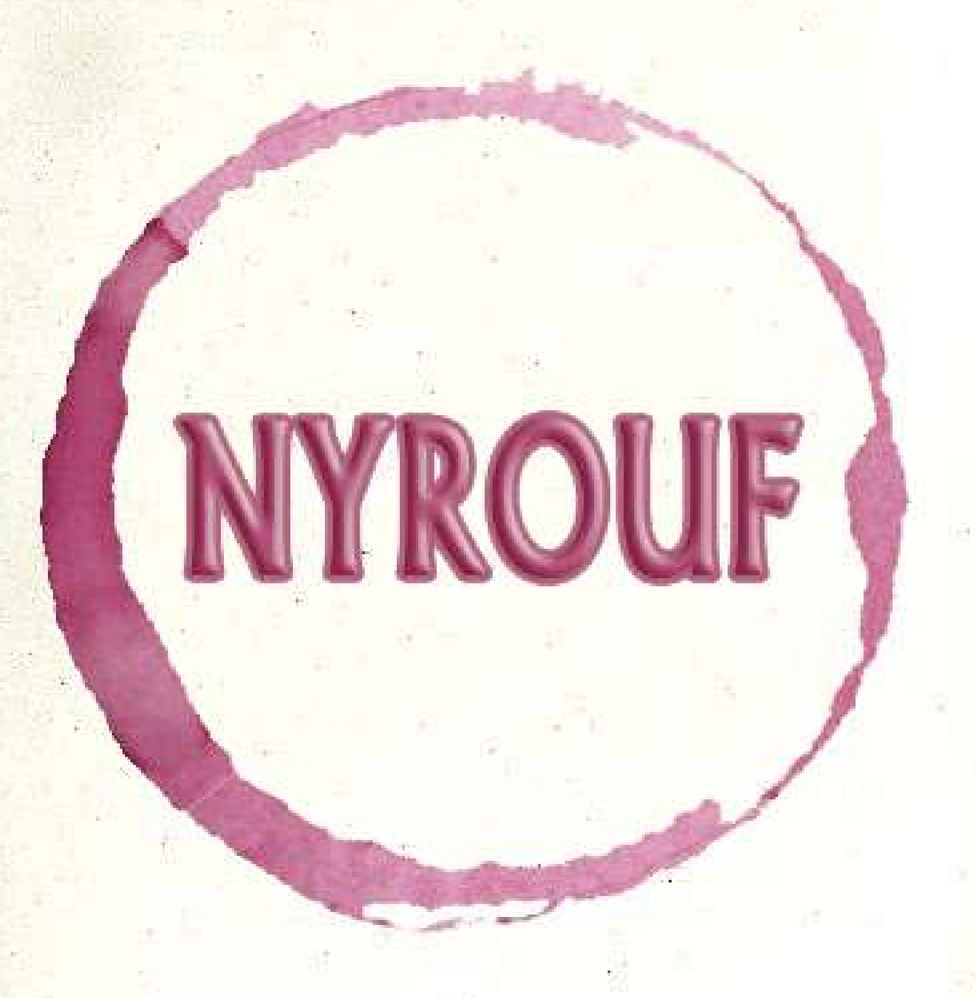
وأما ابن زرعة فهو حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع الى الكتب ، محمود النقل الى العربية ، جيد الوفاء بكل ما جل من الفلسفة ، ليس له في دقيقها منفذ ، ولا له من لغزها مأخذ ، ولولا توزع فكره في التجارة ، ومحبته في الربح ، وحرصه على الجمع ، وشدته على المنع ، لكانت قريحته تستجيب له ، وغائصته تمر عليه ، ولكنه مبدد مفند ، وحب الدنيا يعمي ويصم .

وأما ابن الخمار ففصيح ، مبسوط الكلام ، مديد النفس ، طويل العنان ، مرضي النقل ، كثير التدقيق ، لكنه يخلط الدرة بالبعرة ، ويفسد السمين بالغث ، ويرقع الجديد بالرث ، ويشين جميع ذلك بالزعارة والصلف ، ويزيد في الزلم والسول . فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص ، وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف ، وما يصفيه بالصواب يكدره بالاعجاب ، ومع هذا يصرع في كل شهر مرة أو مرتين .

وأما ابن السمح ، فلا ينزل بفنائهم ، ولا يسقى من انائهم ، لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجدل وهو بالشيخ أشبه ، والى طريقة العجمي أقرب ، والذي يحطه عن مراتبهم شيئان : أحدهما بلادة فهمه ، والآخر حرصه على كسبه ...

وأما مسكويه ففقير بين أغنياء ، وعيي بين أبيناء ، لأنه شاذ ، وأنا أعطيته في هذه الأيـــام ، صفو الشرح لايساغوجي ، وقاطيغوريـــاس ، من تصـنيف صديقنا بالري ، قال : من هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غــلام أبي الحسن العامري ، وصححه معي ...

فقال (الوزير) : يا عجبا لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ، ورأى من كان عنده ، وهذا حظه ؟ قلت : قد كان هذا ، ولكنه كان مشغولا بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيميائي الرازي ، مملوك الهمـــة في طلبه والحرص على اصابته ، مفتونا بكتب أبي زكريـا وجابر ابن حيان ، ومع هذا كان اليه خدمة صاحبه في خزانة كتبه ، هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضروريـــة والشهوية ، والعمر قصير ، والساعات طائرة ، والحركات دائمة والفرص بروق تأتلق ، والأوطار في عرضها تجتمع وتفترق والنفوس على فوائتها تذوب وتحترق ، ولقد قطن العامري خمس سنين جمعـــة ، ودرس وأمــلي وصنف وروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ، ولا وعى مسألة ، حتى كأنه بينه وبينه سد ، ولقد تجرع على هذا التواني الصاب والعلقم ، ومضغ بفمه حنظل الندامة في نفسه ، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله . وبعد ، فهو زكي حسن الشعر نقي اللفظ ، وان بقي فعساه يتوسط هذا الحديث ، وما أرى ذلك مع



كلفه بالكيمياء ، وانفاق زمانه وكد بدنه وقلبه فى خدمة السلطان ، واحتراقه فى البخل بالدانق والقيراط والكسرة والخرقة ، نعوذ بالله من مدح الجود باللسان ، وايثار الشح بالفعل ، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقته بالعمل ، وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بلى به والبلاء المعصوب بناصية من غلب عليه ... » .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٥/٤٩٤٥

ISBN — 977 — 01 — 4416 — 9